

حسن محسّب

البطل
القصة المصرية

دار المعارف

Bibliotheca Alexandrina
0040335

اقرأ ١٠٦

رئيس التحرير أنيس منصور

حسن محسّب

البطل في القصة المصرية



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لماذا هو بطل عظيم ؟ . .

إن الفلاح المصرى هو البطل الحقيقى فى كل العصور ، هذه حقيقة من الصعب إثبات عكسها ! .

إنه جدى وجدك ! . .

إنه واهب الحياة والخير لمصر ! . .

إنه أول مخلوق على الأرض اخترع لغة الكلام وأرقام الحساب ، وليس هذا تعصباً ، بل حقيقة أكدها عشرات من الباحثين العالميين ، لعل أحدثهم هو : «ماريو باى» ، وهو كاتب ومدرس لغوى ومن أعظم الحجج المعاصرة فى اللغة .

ولد فى إيطاليا ثم هاجر لأمريكا عام ١٩٠٨ ، وحصل على الدكتوراه فى فقه اللغة ، وله كتاب رائع اسمه «لغات البشر» . . يشهد فيه لأجدادنا المصريين بالسبق والفضل العظيم على «اختراع» لغة تحقق الاتصال الإنسانى بين الناس كافة .

فهل نحن فى حاجة إلى أدلة أخرى ؛ لنؤكد أن جدنا الفلاح كان وسيظل بطلاً لكل العصور؟ .

يكفى أنه بانى أهرام الجيزة الأسطورية ! .

يكفى أنه صمم ونفذ تمثال «أبو الهول» العجيب !

يكفى جدًّا أن نقول : إن فلاح مصر منذ آلاف كثيرة من السنين تمكن من هذا الإتقان المذهل للفنون والآداب الخالدة ، وأنه سيطر على نهر النيل ، وجعل «هيرودوت» يلخص البطولة كلها فى جملة واحدة هى : مصر هبة النيل. وإن كنت أود أن أقول : إن مصر هبة النيل والفلاح ! . .

لكن لماذا ؟ . . التاريخ يقول :

كان سكان مصر الأوائل محصورين بين رمال الصحراء المغيرة عليهم من ناحية ، والغابة وما عليها من ناحية أخرى ، وكان على هؤلاء الفلاحين المهرة – إذا أرادوا أن يجدوا لأنفسهم مستقرًّا ثابتاً – أن يجففوا الغابة ويقطعوا أشجارها ، وكان عليهم كل عام أن يحجزوا مياه النهر وينظموها ، ولم يكن ذلك عملاً سهلا ، بل كان مجهوداً عظيما بطيئاً استمر آلاف السنين ، تعاون الفلاحون فى أثنائها على شق القنوات وإقامة أحواض لحجز المياه . و. . ومن هنا صارت مصر هبة النيل والفلاح لذكى أيضا ! .

ولم يكن جدنا الفلاح بارعاً فى شئون الزراعة والصناعة والآثار

فقط ، وإنما كان عملاقاً فى فنون أخرى. أكتفى هنا بمثالين فقط هما :

قال «ول دورانت» المؤرخ الشهير فى المجلد الثانى من قصة الحضارة :

«إن حضارات الشرق كلها مدينة لذكاء الفلاح المصرى الذى برع فى صنع حضارة مبكرة ، وجعل بلده مخزناً أميناً لهذه الحضارة ؛ حتى تبلورت ؛ ثم تمكن من صنع السفن وركب بها البحار ليحقق أول تبادل حضارى فى التاريخ» . .

ويقول المؤرخ الأثرى المصرى سليم حسن رحمه الله : إن فلاح مصر كان رائداً فى مجالات شتى ؛ ثم يروى هذه الواقعة :

فى معبد أبيدوس الشهير بالعرابة المدفونة– حالًيا فى صحراء سوهاج– كان الفلاحون يقدمون تمثيلية من ثمانية فصول ، يستغرق كل فصل منها يوماً كاملا ، وكانت هذه التمثيلية– كما تؤكد النقوش الملونة التى على جدران المعبد للآن– تحكى قصة إيزيس وأوزريس ، ونضالهما مع إله الشر «ست» ، وكان الفلاحون يقدمون هذا العرض الفنى ممتزجا بروح دينى مقدس ! . . إلخ .

هذا هو جدنا الفلاح العبقرى ! .

والآن : لماذا هذا الحديث المطول . . ؟ .

إنه مجرد تعريف سريع ببطل هذه الدراسة الأدبية ، ومجرد تمهيد للسؤال التالى :

لماذا كان الفلاح المصرى هو البطل الوحيد فى كل البدايات الأولى للقصة المصرية والرواية المصرية ؟ . .

وأيضاً . . كيف تعامل أدباء مصر وهذا الفلاح البطل ؟ . .

إننى – فى تواضع شديد – كنت – بتوفيق الله – أول من فتح ملف قضية الفلاح فى القصة المصرية عام ١٩٦٥ يوم كتبت دراسة أدبية عن الفلاح فى مجلة « الإذاعة والتليفزيون » . .

وقد نشرت دراستى تلك عام ١٩٧١ فى سلسلة « المكتبة الثقافية » ، وقد أشرت فى مقدمتها إلى المحاولات التى سبقتنى ، وهى دراسات اجتماعية مثل « الفلاحون » للأب هنرى عيروط و« الأراضى والمجتمع » للدكتور محمود يوسف الشواربى ، و« الفلاح فى الأدب العربى » للأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، و« قضية الفلاح » للدكتورة بنت الشاطئ ، وكل هذه الدراسات كانت تهتم بحق الفلاح فى التعليم والعلاج والطعام ، والمشاركة فى الحياة النيابية ، لكنها جميعاً لم تهتم بشخصية الفلاح ومشكلته ، كما صورها أدباء مصر فى رواياتهم وقصصهم المشهورة ، وهذا ما أحاول الحديث عنه فى هذه الصفحات ، فأرجو أن يوفقنى الله إلى ذلك ؛ لكى يتذكر شبابنا كفاح جدنا الفلاح الذى هو أعظم بناء فى التاريخ !

المؤلف

أول قصة .. الفلاح الفصيح !

قبل أن نعرف كيف عبر أدباء مصر الكبار عن الفلاح بطلا عبقريا – يجب أن نبحث عن البداية :

فقبل أن يصدر قانون الإصلاح الزراعى الأول فى ٩ من سبتمبر سنة ١٩٥٢ ليعيد للفلاح حقه فى أرض مصر ! . .

وقبل أن يأتى يوم الجمعة الموافق ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ، حيث وقف عرابى على حصانه ، وشهر سيفه فى وجه الخديو توفيق ، معلنا ثورة الفلاحين ! . .

وقبل أن يحل عام ١٨٢٩ الذى أصدر فيه محمد على باشا أول قانون – فرمان سلطانى – بمنح أراضى مصر : «أبعاديات» للإقطاعيين والهوانم ! . .

وقبل أن يزداد طغيان المماليك الذين ثار عليهم الفلاحون وحرقوا الغلال وهجروا القرى تمرداً وعنفاً عام ١٧٣٦ . . حيث يحكى الجبرتى : إن الفلاحين فى تلك الأيام أقاموا أول جمهورية بزعامة شيخ العرب همام : انظر الجبرتى ١ / ص ١٨١ وما بعدها .

وقبل أن يصدر نابليون أول نص تشريعى يحرم الفلاح المصرى

امتلاك أرضه أو زراعتها إلا إذا كان قادراً على أن يدفع «للسلطة الفرنسية» ما فرضته عليه من ضرائب ! قبل ذلك كله بعدة آلاف من السنين– كانت مصر تشهد ميلاد أول قصة بالمعنى الفنى الواضح لفن القصة فى التاريخ الإنسانى كله ، وكانت عن الفلاح ومشكلته الاجتماعية ! فكيف كان ذلك ؟ .

كان ذلك فى حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م– يوم راجت فنون الأدب ، وبرع المصرى القديم فى كتابة القصة ، بل تطورت براعته ، فكتب نوعين من القصص :

يقص النوع الأول حوادث حقيقية وقعت بالفعل ، ومن ذلك قصة «سنوحى» الشهيرة ، وقصة «الفلاح الفصيح» الشهيرة أيضا ، والنوع الآخر ، وهو قصص من صنع الخيال معتمداً على الأساطير الدينية ، مثل «ملحمة إيزيس» وغيرها انظر : «نصوص من الأدب المصرى القديم بالبردتين رقمى ٣٠٢٢ و ١٠٤٩٩ المحفوظتين بمتحف برلين– ترجمة ودراسة د . منير مجلى» .

إذن : فقصة الفلاح الفصيح هى أول قصة فى التاريخ كله ، وهى كما نعرف– أو كما يجب أن نعرف– كانت أول قصة عن الفلاح المصرى أيضا ! . .

وهذه القصة تحكى أن الفلاح المصرى– خنوم أنوب– من وادى النطرون كان فى طريقه إلى العاصمة لشراء ما يحتاج إليه بيته وأسرته من

زاد ، وقد حمّل حماره ما يزيد على حاجته من حاصلات أخرى ليستبدل بها ما يحتاج إليه من طعام وغيره ، ثم ساق حماره ، واخترق الحقول ، ورآه شاب ثرى مدلل اسمه «جحوتى نخت» ، وهو ابن أحد كبار الملاك ، والأرجح أن أباه كان «محافظاً» للإقليم .

المهم أن الولد الثرى أراد أن يلهو بالفلاح وأن يضحك عليه ، لأن حمار الفلاح أعجبه ، ففكر فى حيلة لانتزاع هذا الحمار ! لكن كيف ؟ .

إن القصة التى ترجمها أحمد يوسف فى كتابه «الأدب المصرى القديم . . تقول :

لقد جاء ذلك الشاب الخبيث بملاءة وفرشها على الجسر الضيق بين الحقول ، فارتبك الفلاح ، ولم يعد أمامه لكى يعبر ويواصل طريقه إلى السوق — إلا أن يدوس بحماره ملاءة المستهتر . . فيغضبه ، أو أن يهبط أحد الحقول بحماره ، فيأكل الحمار بعض الزرع فيثور المالك الذى هو والد الشاب ، وفى الحالين سيكون حظ الفلاح أسود من ليلة حالكة عاصفة ! .

ثم تقع الواقعة ، ويستولى الولد العابث على حمار «خنوم أنوب» . . فيثور الفلاح ، فيسجن فى قصر الحاكم لتطاوله عليه وعلى ابنه ! ومن السجن يبعث الفلاح بشكواه إلى الحاكم يستعطفه ويرجوه أن يطلق سراحه ، ويرد إليه حماره .

ويقال : إن الحاكم الطاغية قد أعجب بفصاحة خنوم أنوب ،

فأوصى بعدم إعادة الحمار إليه ليظل يشكو. ويظل الحاكم سعيداً بفصاحته ، إلى أن وصل الأمر للفرعون الكبير الذى أعجب هو الآخر « بالفصاحة » خنوم أنوب !

وتحكى القصة أن الفرعون أوصى بصرف الطعام لأسرة الفلاح وأمر بإطالة سجنه ، بل ضربه بالسياط ليستزيد من شكواه وفصاحته ! وتنتهى القصة بهذه الشكوى العظيمة التى يدين فيها الفلاح الفصيح كل جبروت الحكام فى عصره ؛ وفى كل عصر !

إنه يقول لفرعون مصر :

« أيها السمير العظيم ، يا أعظم العظماء ، ماذا أعددت لإرضاء الفقير؟ أليس خطأ أن يتأرجح ميزانك ؟ لقد ضلت العدالة تحتك فأزيحت عن موضعها : فالموظفون عندك يقترفون الإثم ، وانقلبت الحال للأسوأ ! فمن وجب عليه أن يمنح الفقير الهواء للتنفس يأخذ أنفاسنا ! وأملاك الفقير أنفاسه من أخذها منه كتم حياته ، انظر أيها السمير الكبير . لقد تجاوزتك الرحمة ؛ فوجه لسانك للحق ، ولا تقلْ وزراً ، وراقب الحكام يا من جئت لرحمة الفقير ، لقد صرت كبيراً للصوص ! » إلخ . .

هذا مجرد مثال من هذه القصة الأولى الرائدة بحق ، والتى جعلت من الفلاح المصرى بطلا عظيما لأحداثها ، وقالت من خلال ذلك كلمة حق . وأكثر من ذلك : نلاحظ أن مؤلفها المصرى القديم — المجهول مع

الأسف– قد عرف منذ البداية أن هدف الفن هو المناداة بالعدل الاجتماعى وبالمساواة والحق والحرية ، وهذه مازالت– وستظل– رسالة الفن العظيم عبر العصور ! .

إنه لمن حسن الحظ أن التاريخ حفظ لنا مثل هذه النصوص الأدبية من عصر أجدادنا العظام ؛ لكى تثبت للأجيال الجديدة فى مصر والعالم كله أن فلاحى مصر القدامى كانوا يعملون لخير الإنسانية ، ومن حظنا أيضاً أن متحف برلين حفظ لنا هذه الكمية المحدودة من أوراق البردى .

ويهمنى هنا أن أشير إلى أن عدداً من شعراء مصر قد أعادوا صياغة هذه القصة الممتازة ، فى مسرحيات شعرية : فعل ذلك الشاعر المرحوم أحمد على باكثير ، والشاعران المحدثان : فتحى سعيد ومحمد مهران السيد . وقد عرضت مسرحية الأخير على مسرح السامر منذ عام ولاقت رواجاً مدهشاً حقًّا ! . .

المهم : لقد تذكر من كان يعرف ، وعرف من لم يكن يعرف– أن الفلاح المصرى كان بطلا لأول قصة مصرية فى العصر الفرعونى القديم جدًّا ، وهذه شهادة نستعين بها الآن ؛ لنصل إلى بداية العصر الحديث حيث سنجد أنه– الفلاح– كان بطلا لقصص الرواد من كبار أدبائنا أيضاً ، فكيف ؟ ولماذا كان ذلك ؟ الأسباب كثيرة طبعاً– كما سنرى– لكننى أود أن أشير هنا إلى أهم الاتجاهات التى سادت أغلب القصص التى جعلت من الفلاح بطلاً لأحداثها .

ومنها ، اتجاه اكتفى بالسخرية من الفلاح ، والتيئيس من علاجه ، بدأ من «هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف» للشيخ يوسف الشربينى ، وانتهاء ببعض ما تقدمه الإذاعة . . والتليفزيون الآن ، لإضحاك أهل القاهرة على الفلاح العبيط أو الساذج أحياناً — المظلوم كل الأحيان مع عينة من الأدباء لا تستحق أكثر من . . إهمال أمرهم الآن . . وللأبد ! »

أما الاتجاه الثانى ، فقد اكتفى أصحابه بالإشادة بمناظر وأخلاق الريف ، و«محلاها عيشة الفلاح» . . وبعضهم دعا إلى الإشفاق على بؤس الفلاحين . . ولكننى لن أتوقف عندهم كثيراً ، فقد هاجمتهم بعنف فى كتابى الآخر : قضية الفلاح فى القصة — عام ١٩٧١ . . ولا مبرر لمزيد ! . .

أما الاتجاه الثالث ، والأهم ، فهو الموقف الشجاع الذى وقفه رواد الأدب عندنا من كل الأجيال ، لكى يعالجوا بحكمة وذكاء كل أحوال مصر ، وأمراضها وأحلامها ، من خلال شخصية الفلاح بوصفه العنصر الأساسى فى بنية المجتمع المصرى ، وعلى اعتبارات أن الفلاح هو الملخص الضخم لكل ما جرى ويجرى فى بلادنا ، ولهذا كان الفلاح هدفهم ووسيلتهم للإصلاح والتطوير . . كما سنرى فى الفصول التالية .

الأفغانى والنديم والفلاح
و « ميت جنيه بالفرط »

كما نعرف : دخلت مصر إلى العصر الحديث بقدوم الحملة الفرنسية ، وإذا كانت الحملة العسكرية قد جاءت بشر الغزو والاستعمار فقد كان على إحدى سفنها مطبعة وعدد من العلماء الذين تركوا للتاريخ ذلك الأثر الخالد «كتاب وصف مصر» الذى يعد أول ضوء مفيد على عظمتنا ، ذلك بالإضافة إلى عثور شامبليون على حجر رشيد العجيب الذى فك رموز اللغة المصرية القديمة ، فأطلق أنوار الفهم بيننا ، وجعل الدنيا تعرف سر عظمة الأجداد من فلاحى مصر !

المهم أن هذا العصر الحديث بالنسبة لمصر قد أدى إلى زيادة فى فهم الفلاحين ، وزيادة فى حبهم للحرية ، وقوة إلى ثورتهم ، فطردوا الغزاة عهداً بعد عهد . وإذا كان الفلاح قد ثار بعنف عام ١٤٤٢ كما يحكى « ابن إياس » – فإنه قد ثار أيضا عام ١٧٣٦ كما يذكر الجبرتى ، ويروى رفاعة الطهطاوى . لقد مهدت هذه الثورات لعصر من التنوير على أيدى عمالقة مثل جمال الدين الأفغانى الذى جلس ذات ليلة فى قهوة ماتاتيا فى ميدان العتبة الخضراء ، وحوله بعض مريديه ، ومنهم الشيخ

محمد عبده ، والشاب الصغير «عبد الله النديم» ، وقال الشيخ الأفغانى قولته الخالدة يومئذ :

عجبت لك أيها الفلاح ! تشق قلب الأرض بفأسك ، فلم لا تشق بنفس الفأس صدر ظالميك ؟

لقد حفظها عبد الله النديم ، وجعلها نبراساً يهتدى به فى كل كتاباته ضد الخديو ، ومحرضاً لعرابى حتى جعله يثور ثورته التاريخية ، ويعلن للخديو : أن مصر حرة ولن تورث بعد اليوم !

هذا هو المناخ الذى نجد فيه شخصية الفلاح المصرى بطلا عبقريًّا فى قصص تمثيلية كتبها النديم : من هذه القصص اخترت لكم هذا النموذج ، وقد نشره النديم تحت عنوان «الفلاح والمرابى» فى مجلته «التنكيت والتبكيت» وهذا نصه :

* «احتاج أحد الزراع لاستدانة مائة جنيه ، فقصد أحد التجار ، وطلب منه المبلغ ، فجرت بينهما هذه الحكاية بحضور أحد النبهاء :

ز : عاوز ميت جنيه بالفرط يا سيدى .

ت : فرط المائة — عشرون كل سنة ؟

ز : اعمل اللى تعمله !

ت : شيل عشرين من المائة تبقى كام ؟ .

ز : هو أنا كاتب ؟ شوف انته يفضل كام .

ت : يبقى سبعين !

ز : يدوب كده .

ت : دلوقت صار لى مائة جنيه عندك . ضم عليهم عشرين واكتب الكمبيالة ! .

ز : اكتب وخد الختم أهو ! . . .

وتسلم الفلاح سبعين جنيهاً وعندما جاء وقت المحصول قدمه للتاجر الذى أعاد طريقته فى الحساب فإذا بالفلاح أصبح مديناً للتاجر بمائتين وعشرة جنيهات ونصف الجنيه! لكن «النبيه» دهش ، وعاتب التاجر على جشعه ، فقال التاجر المرابى ضاحكاً : «يا خبيبى الزارع حمار ! ».

* حتى أزجال عبد الله النديم ، كانت تدور حول شخصية الفلاح ومأساته التى تلخص لنا مأساة مصر فى عهود الاستغلال والاستعمار والفساد : فنى زجل له يقول :

أهل البنوكا والأطيانْ
صاروا على الأعيان—أعيانْ
وابن البلد ماشى عريانْ
مَمْعاه ولا حق الدخانْ
شرم برم حالى غلبانْ !

«انظر كتب الأساتذة : محمد عبد الغنى حسن ، ومحمد عبد الوهاب صقر ، وفوزى شاهين ود . ماهر حسن فهمى ، ود . على الحديدى عن النديم» .

* لكن لماذا اختار عبد الله النديم شخصية الفلاح ليصور من خلالها حكاية مصر كلها ؟ ولماذا جعل الفلاح بطلا لقصصه وأزجاله ؟

ذلك لسبب بسيط جدًّا هو أن مصر هبة للفلاحين ! وليس ذلك لأنها بلد زراعى ، فقط ، وإنما لأن مصر لا معنى لها بغير الفلاح ، وهذه مسألة بديهية .

وثمة سبب سياسى وأسباب اقتصادية واجتماعية كثيرة حدثت لمصر فى عهد النديم وقبل النديم ، فى ذلك العصر – كان الأدب المصرى ، وكان أدباء مصر يرون كيف تعقدت مأساة الفلاح بشكل خاص بسبب المبالغة فى ظلمه وتعذيبه ، وخاصة أن اسم الفلاح كان يكتب فى الدولة آن ذاك تحت بند « شيال الطين » ! وكانت حياته نهبا لشتى أنواع الظلم ، ويكفى أن نذكر ما جاء فى كتاب الشيخ يوسف الشربينى « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » حوالى عام ١٧٥٧ ميلادية ، الذى يلوم فيه الفلاحين « لسوء أخلاقهم ، لكثرة معاشرتهم للبهائم والأبقار » والذى يطلب منك « لا تكرمهم أبدا – الفلاحين طبعاً فإن إكرامهم فى عقبه الندم » ثم يقول بالنص :

لا تسكنن الريف إن رمت العلا　　　إن المذلة فى القرى ميراث !

والنديم ، كان قد قرأ هذا وعرفه ، وفهم منه أبعاد مأساة الفلاح المصرى ، وعرف أيضاً أن وجبة الطعام المصنوع من « الفطير والفراخ والبط » التى كان يقدمها الفلاح لجابى الضرائب ليلتهمها ؛ ربما يتدبر

أمره ويوفر له قيمة الضرائب المطلوبة – هذه الوجبة الدسمة قد صارت جزءاً من الضرائب لا يصح أبداً عدم تقديمها ! .

وأكثر من هذا – عرف النديم أن الفلاح قد صار مطالباً بدفع ١٧ نوعاً من الإتاوات للملاك ، والحكام برغم أنفه كل عام ، وهذا ما يرويه « مسيو هامون » ويضيف قائلا فى كتابه عن مصر فى عهد أسرة محمد على باشا : « ولذلك كان طبيعيًّا أن نرى فى كل مكان بواراً ، ودماراً ، وشعباً نزل إلى أدنى درجات الانحطاط والجهل فى ظل فوضى فى الإدارة والقضاء والمالية ! » .

عرف عبد الله النديم كل هذا ، وعرف قبله طبعا ما رواه ابن إياس والجبرتى ، وتعلم دروس الواقع المر المؤلم الذى عاصره بنفسه ، بل كتب قصة مخيفة جدًّا عن هذا الواقع الذى رآه بنفسه فى عهد الخديو توفيق ، وها هو ذا يروى فى مذكراته التى سماها : « تاريخ مصر فى هذا العصر » يقول :

وكان الخديو غارقاً فى لذاته ، سائرا وراء شهواته ، لا يرفع إلا الأراذل ، ولا يقرب إلا الأسافل ، ثم حمله جشعه على زيادة الطمع ، فأرسل فى الأنحاء كل صخرى الفؤاد وحشى الأخلاق ، وفى الأصل سيىء المنبت والتربية ، خبيث الطبع ، لا يرعى حرمة للإنسانية ، ولاحقًّا للدين ولا ذمة للأخلاق ، فأرسل « عكوش » وعمر لطفى وسلطان لإكراه الأهالى على تسليم الأطيان ، فاغتصبوا له تفاتيش الصعيد ، ثم استعمل

«حسن راسم» على الأقاليم البحرية ؛ ليتم الخراب وتعم الرزية ، وكان العربون السلب ، وبقية الثمن الضرب ، ثم أخذ فى بناء السرايات وحشوها بالحسناوات ! .

وفى يومى ٤/٢٩ ، و ٥/٦ سنة ١٨٨٢ ، كتب عبد الله النديم فى جريدة «الطائف» وصفاً قصصيًّا بشعا لطريقة جمع الضرائب من الفلاحين ، فقال : «كانت طرق تحصيل الضرائب تقشعر لها الأبدان ، قوامها الإذلال والإهانة والإيلام ، فقد هبط مأمور الضرائب إلى القرية ، فوجد فلاحا قد مات ـ ووضع فى النعش وحمله الفلاحون ليدفنوه ، فأوقف الجنازة ، وصمم على إنزال النعش من فوق أكتاف المشيعين حتى تدفع الضريبة التى كانت مستحقة على ذلك الفلاح الذى مات ! وصاح المشيعون : لعنة الله على الخديو فى كل كتاب ! وأخيرا دفعت الشهامة أحد المشيعين ، فدفع الضريبة ، وكانت ستة قروش فقط ! لأنه كان فلاحاً أجيراً لا يملك أرضاً ! » .

من هذه الأحداث ، ومن أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية – استمد النديم كل قصصه وأزجاله وتمثيلياته ، وكان لابد أن يجعل الفلاح بطلا عظيما لكتاباته ؛ وبذلك صنع بداية فنية رائعة لجميع أدبائنا كما سنرى فى الفصول ـ التالية !

البنت الحلوة : زينب ! . .

إذا كان عبد الله النديم قد رأى أن حل مأساة الفلاح – هو : العدل والمساواة والرحمة ، وإذا كان هو كاتباً ثوريًّا وجادًّا فى دعوته لإنصاف الفلاح – فإن المراحل التالية له قد غرقت فى تمزقات السياسة والمحاكمات التى عقدت لعرابى وزملائه بعد إخفاق ثورتهم ، ودخول الإنجليز إلى مصر ، وازدياد جشع الخديو ، والتاريخ يحكى لنا بقية المهزلة السياسية الكبرى !

لكن الذى يهمنا هنا هو تتبع شخصية فلاح مصر فى قصص أدبائها ، ولن نعثر على ذلك البطل العظيم فى أية قصة لها شأنها ابتداء من عام ١٨٨٢ إلا فى عام ١٩١٢ ، ويقال فى رواية أخرى عام ١٩١٠ ، وذلك يوم نشر الدكتور محمد حسين هيكل رائعته الخالدة « زينب » وجعل طبعتها الأولى تحمل وساماً يهمنا هنا ، إذ قال : إنها من تأليف : مصرى فلاح ! . .

نعم ، لم يذكر هيكل اسمه على أول طبعة من القصة ، ربما لأسباب سياسية ، إذ كان من الوجوه النيابية اللامعة ، وقد وصل إلى منصب رئيس مجلس الشيوخ المصرى ، وربما لأسباب أسرية ، إذ كان عيباً كبيراً ملحوظاً

أن ينصرف أحد من أبناء الأرستوقراطية المصرية إلى ممارسة هذه الأعمال «المعيبة» مثل تأليف القصص ، أو التمثيل ، مثلما حدث ليوسف وهبى الذى غضب عليه والده لحبه للتشخيص ؛ أى التمثيل ! ومثلما سخر والد توفيق الحكيم منه لأنه «شاغل نفسه» بفن العوالم ! إلخ .

المهم : أن قصة زينب كانت أول رواية مصرية ، تحمل سمات هذا الفن الجديد ، وعلى أحدث أساليبه فى أوربا آن ذاك ، وكان ذلك فتحا فنيًّا جديداً ، إذ كان الشائع عندنا قبلها هو فن المقامات : مثل مقامات المويلحى فى «حديث عيسى بن هشام» وغيرها . .

وإلى جانب أنها كانت البذرة الأولى للفن الروائى فى أدبنا الحديث والمعاصر - كانت أيضا تفسح صفحاتها لتجعل من الفلاح بطلا عملاقاً ينتصر للحق والخير، برغم ما حفلت به الرواية من آراء قد تختلف حولها كثيراً أو قليلا والمؤلف ، مثل قوله فى صفحتى ٢٠ و ٢١ : «وكأنه - الفلاح الجائع المظلوم - كلما زادت أمامه أسباب المعيشة ، توافرت عنده دواعى الطمع فى أن يحيا حياة إنسانية ! . إن الهدف نبيل حقًّا ، لكن صياغة هذه الكلمات جعلت موقف المؤلف يزداد التباساً ؛ مما يجعلنا نرجح أنه لم ينس قط وضعه الطبقى وحقه كمالك كبير، حتى وهو يكتب رواية إنسانية ممتازة !

والقصة تركز على مناظر وأخلاق الريف ، بل هذا هو ما حرص هيكل على كتابته بالحرف على غلافها أيضاً ، ثم برع جدًّا فى كتابة

القصة على نسق رواية إسكندر ديماس الابن الشهيرة جدًّا «غادة الكاميليا» :

فنحن نجد أمامنا قصة حب رومانسى تجمع بين زينب وإبراهيم الفلاح ، وسنجد أيضاً أن صراعاً عاطفيًّا يعذب زينب ؛ لأنها من جهة تحب إبراهيم ، ومن جهة أخرى تميل إلى «حامد» ابن صاحب المزرعة . . ثم ينتهى الأمر بزواجها من «حسن» بالرغم عنها . . ثم تموت فى النهاية بمرض السل ؛ كما نعرف جميعاً ؛ فقد شاهدنا القصة فيلما سينمائيًّا وأعيد تصويرها- مرتين أيام السينما -الصامتة والسينما الناطقة، وفى المرتين- حافظ المخرج محمد كريم ببراعته على كل تفاصيل الرواية وأحداثها ، وأنا أقول ذلك لمن لم يقرأ القصة ، واكتفى بمشاهدتها فيلماً ! .

لكن السؤال هو :

كيف كانت صورة الفلاح بطلاً فى رواية زينب ؟ وكيف كانت نظرة المؤلف لمأساة الفلاح وأوضاعه الاجتماعية التى تلخص مشاكل مصر كلها ؟

إن الإجابة عن هذه التساؤلات تجعلنا نلاحظ منذ الصفحات الأولى- أن هذه القصة امتازت عن قصص عبد الله النديم ، وقصص الأدب الفرعونى ، بأنها كانت - وهذا فضل لهيكل - أول قصة تقر لوحات كاملة لعمال الزراعة والأجراء الجوعى !

* وبهذه المناسبة : الفلاح هو : المالك الصغير ، والزارع ، والأجير ، والمعدم .

ولقد اتسعت صفحات القصة لهذه الأنواع كلها ، فقدمت لنا « الأجراء » وقد أحاطوا بمكتب « باشكاتب » الزراعة ، وهم يتزاحمون لصرف أجورهم الضئيلة ! . .

وفى أعقاب هذه اللوحة التى تستغرق ١٥ صفحة من القصة – نطالع حكايات صورها هيكل بذكاء ؛ ليظهر قسوة كاتب الزراعة فى معاملته للأجراء .

فها هو ذا الأجير « عطية أبو فرج » قد أمضى أكثر أيام الأسبوع مريضا ، فخرج منه بستة قروش فقط ! على حين أنه يعول امرأة وبنتاً ويساعد أمًّا دقتها الأيام !

* ويمكن أن نلاحظ الآن علاقة هذه الحادثة فى قصة زينب ، وقصة « الحرام » ليوسف إدريس بلا أى فارق ؛ كما سنرى فى فصل آخر بعد ذلك !

المهم : لقد كان د . هيكل منصفاً للفلاح فى بعض أحداث روايته ، مثل قوله فى ص ٢٠ : « إن المالك يفكر فى أن يبيع قطنه بأغلى ثمن ، وأن يؤجر أرضه بأرفع أجر ، وفى الوقت عينه يستغل الفلاح نظير قوته الحقير ! » .

* وهذا جميل من أديب ، هو أصلا باشا ومن كبار الملاك ، لكن

الذى يثير الدهشة أنه بعد ذلك حيث يأتى فى صفحة ٥٩ – ليلغى حماسنا لمأساة هذا الأجير المريض الفقير الجائع ، فيقول : «إنه ككل إخوانه من العمال على ظهر البسيطة ! وبمعنى أوضح : لماذا نحزن من أجله ! تماماً كما سبق له أن قال فى ص ١٦ : «بالرغم من الخَلق المرقوع الذى يلبسه – هو وبقية أفراد أسرته – لم يكن من سبيل لغير هذا ! » .

وثمة سؤال يفرض نفسه الآن :

– ماذا ؟ ألا يحس الفلاح عند هيكل ؟ ألا يعرف آلامه وشقاء حياته ؟ أليس من حقه على الكاتب أن يكون عنيفا من أجل عذابه هذا ؟ ألا يستحق سطراً واحداً يطالب فيه – ولو تلميحاً – بضرورة معاملته بقانون العدل والمساواة ؟

لقد كان د. هيكل فى جبال سويسرا فى أثناء كتابته لهذه القصة الخالدة ، وكان بالتأكيد على علم بأحداث أوربا التى كانت تستثمر بوعى وذكاء مكاسب الثورة الفرنسية التى نادت بالعدل والحق والحرية ، وبالتأكيد كان يعرف ذلك ، وكانت ثقافته الرفيعة تجعله على بينة من أمره وأمر الفلاحين الجوعى ، ومع ذلك كان تعليقه الأدبى فى روايته هو : «ولكنهم» ، يقصد الأجراء المرضى الجوعى : «ولكنهم ما كانوا ليحسوا بذلك – الجوع والفقر – أو ليألموا له ، وقد تعودوه كما تعوده آباؤهم من قبلهم ! »

إننا نفترض حُسن النية طبعاً ، ونقول : إنه ربما كان يسخر من الظالمين وجشعهم ! . .

لكنه – وكأنه شعر بعدم تصديقنا – يكمل شارحا وجهة نظره فيقول فى «ص ١٧» : «تعودوه من يوم مولدهم فانتقل إليهم بالوراثة وبالوسط ! تعودوا ذلك الرق الدائم ، ينحنون للسلطان من غير شكوى ، ومن غير أن يُدخل نفوسهم قلقا ! . .

لكن هذه الملاحظات لا تقلل من إعجابنا بروعة تصويره للفلاحة «زينب» ، بل لعلها أعظم صورة فنية رسمت للآن لشخصية الفلاحة المصرية التى كانت تقتحم بطولة القصة المصرية لأول مرة فى تاريخ الأدب العربى على حسب علمى ! . .

فالفلاحة هنا هى ابنة ذلك الفلاح الفصيح الذى لم يخش الفرعون القديم ، بل هى كانت أعظم فى اضطرارها للخنوع لأمر الأسرة عندما زوجوها – بالرغم عنها – من حسن فجاهدت عذاب الحب بصبر الفلاحة المصرية الأصيلة حقًّا !

وإذا كان المؤلف قد أصر على إماتتها بداء السل – والعياذ بالله – فهو حر طبعاً فى شخصيات قصته ، لكن فاته أنه قد سجل فى صفحة ٢٥٦ – قوله : «فى هاته القرى المصرية حيث الهواء الطلق والشمس الدافئة والحياة الهادئة قل أن يتصور إنسانٌ مرضاً كالسل ! » .

لكن الأمر المؤكد هو أن مستشفيات الصدر عندنا تجد دائماً عشرات ،

بل مئات فى حاجة إلى علاجها الطبى من جميع أمراض الصدر ، وليست هذه – على كل حال – مشكلتنا مع المؤلف ، بل قضيتنا الحقيقية معه هى قوله فى ص ٤٦ يصف اجتماع الأنفار للغداء ، وهو طعام لا يزيد على كونه خبزا جافًّا وبصلا وبعض المش ! ومع ذلك يقول : «جعلوا يحضرون طعامهم ويضمونه كعادتهم بعضه إلى جانب بعض ليتناولوه معاً محققين بذلك أكمل معانى الاشتراكية ! » . .

وبالطبع فإن د . هيكل كان يعلم أن اشتراكية الفقر والجوع والمش والبصل ، ليست هى الاشتراكية التى يحلم بها أى إنسان ! . .

ومع ذلك ، فإن رواية زينب كانت نصرا أدبيًّا كبيرا للفلاح والفلاحة وبطولتهما فى تحدى أو احتمال ما يحدث لمصر من المآسى !

ولكن : هل معنى ذلك أن دعوة عبد الله النديم – للعدل والمساواة والرحمة – قد ضلت الطريق ، أو وجدت لها أنصاراً آخرين ؟ ذلك ما نبحث عنه فى قصص بقية رواد القصة والرواية فى الصفحات التالية :

الجلاد أم القاضى ؟

● **فى القطار :**

بعد رواية زينب – وبالتحديد بعد خمس سنوات – ظهرت فى صفحات مجلة « السفور » المصرية ، قصة قصيرة » بعنوان « فى القطار » للأديب محمد تيمور رائد القصة المصرية ، والذى كان نجم « المدرسة الحديثة » من أدباء شبان موهوبين يحدثنا عنهم يحيى حقى فى كتابه « فجر القصة المصرية » حديث الفن والحب .

ولقد كان ظهور الفلاح بطلا لقصة تيمور هذه ، مرتبطاً بظروف الإرهاصات العميقة لثورة سنة ١٩١٩ التى كانت تستعد للانفجار فى ربوع مصر كلها عندما نفى الإنجليز « سعد باشا زغلول ورفاقه » ، كذلك كان « المناخ » الثقافى يسمح بظهور دعوات الإصلاح بل التحريض على الثورة ، ضد كل ألوان الظلم والاستعمار والملكية الفاسدة ؛ فقد كان لطفى السيد مثلا يصدر جريدته ، وينادى مع غيره من المفكرين المصريين لإنشاء الجامعة المصرية لتعليم أبناء الشعب تعليماً راقياً ، وإعداد القيادات من بينهم . .

وكذلك شهدت تلك المرحلة قيام طلعت حرب بمشروعات

اقتصادية ضخمة بهدف تحقيق الاستقلال الاقتصادى الوطنى ، وغير ذلك من ظواهر إعادة مصر للمصريين كخطوة للخلاص من كل ألوان الاحتلال والقهر والتخلف والفساد . .

ونحن نجد صدى ذلك كله فى قصة « فى القطار» حيث ناقش محمد تيمور مشكلة مصر من خلال شخصية الفلاح ، وهل علاج مأساته يكمن فى تعليمه ، أو جلده بالكرباج ، أو تركه يمرض ويموت ؟ بل يورد رأياً مخالفاً يقول :

«لا تنس أن الفلاح لا يذعن إلا بالضرب ؛ لأنه اعتاده من المهد إلى اللحد ! » .

وهو بوعى وذكاء يرد على ذلك بمناصرته للعدل فى معاملة الفلاح برغم أن تيمور هذا كان وقتها من أسرة تملك عشرات المئات من الأفدنة ، كما أنه كان أحد كبار موظفى ديوان الأسرة المالكة والحاكمة لكل مصر !

● إحسان هانم ! . .

وعلى نفس الخط الفنى ، نشر « عيسى عبيد » مجموعته القصصية «إحسان هانم» عام ١٩٢١ ليحدثنا عن جمال الريف وعن الفلاحين ، فها هو ذا يقدم لنا قصة فتاة ريفية كانت تحب ابن عمها الفقير مثلها ، ثم طمع فيها « فخرى » ابن الباشا ، فأحبته انبهاراً امنها برقة حديثه وتسلمه

نفسها طمعاً فى الزواج ، لكنه يلفظها بعد أن يشبع رغباته الجنسية ، وتنتهى المأساة بقتلها غسلا للعار !

وقد حَشَا «عيسى عبيد» قصته بوصف جمالى للريف ، لكن من وجهة نظره كسائح يزور الأرياف ، وهذا ما ينبهنا له الناقد «عباس خضر» فى دراسته عن نشأة القصة المصرية ؛ إذ يقول : إن انبهار عيسى عبيد ابن القاهرة – بخضرة البرسيم فى الحقول ، جعله ينسى أن هذا البرسيم الجميل يزرعه فلاح مسكين لا يعرف غير الجوع والمرض والجهل ، ونحن لا نجد ما نضيفه إلى تعليق عباس خضر الذكى ! . .

● الشيخ جمعة :

وفى عام ١٩٢٥ ، يلتقط شخصية الفلاح قلم الكاتب الكبير – الراحل – محمود تيمور ليجعله بطلا لأول قصة يخطها وأول مجموعة قصصية يصدرها فى كتاب ، وهى مجموعته الرائدة : «الشيخ جمعة» التى كتب لها مقدمة تعد أول دراسة أدبية مصرية فى فن القصة ووظيفة الأديب فى المجتمع ، وملخص رأيه هو «أن واجب القصصى أن يكتب عن الحياة القاسية والعادلة ! » .

ولكن : ما صورة البطل الفلاح فى قصة محمود تيمور؟

إن الشيخ جمعة هنا مجرد حارس لجرن الضيعة الضخمة التى يملكها تيمور ، وكانا يلتقيان كلما ذهب للاستجمام فى مزرعته ، وكان الشيخ

جمعة يحكى لتيمور قصة سيدنا سليمان وما جرى له من النسر العجوز الذى عاش ألف ألف سنة .. إلخ ، كما كان يروى حكايات السيد البدوى الذى حارب الجيوش من قبل أن يولد ، وأنقذ الأسرى المصريين من أيدى ملك فرنسا الذى احتل دمياط والمنصورة و. .إلخ .

وتنتهى القصة بقول تيمور : « الشيخ جمعة رجل فلاح سعيد بإيمانه قانع بمعيشته منعم بخياله ؛ فهو الرجل البعيد كل البعد عن العالم المعقد ، والفلسفة السقيمة ، الرجل الذى تسعى إليه السعادة الحقيقية فيتمتع بها تمتعاً صحيحاً » . .

ثم يقول محمود تيمور فى ص ٧ : « فما أحلى عيشتك أيها الفلاح ! وما أحلى الأيام اللذيذة التى تقضيها فى دنيانا ! وما أحلى سذاجتك ! »

ومعنى هذا أن تيمور فى هذه اللوحة القصصية الفريدة عن الفلاح عنده يريد أن يقول لنا : إنه لا داعي إطلاقاً للتألم من أجل الفلاح ، أو التفكير فى حل مشاكله ؛ فما أحلى عيشته ! . . تماماً مثلما غنى عبد الوهاب للفلاح فقال : محلاها عيشة الفلاح ، عايش متهنى باله مرتاح !

لكن رسالة كتبها محمود تيمور إلى صديقه الفنان الكبير زكى طليمات سنة ١٩٢٦ ، حيث كان طليمات فى باريس لدراسة التمثيل . فى هذه الرسالة يصف تيمور لصاحبه ما يشاهده فى ضيعته الكبيرة فيقول :

« لقد دخلت بنفسى منازل هؤلاء الفلاحين بعدما تفقدت الحارات

الضيقة المتعرجة فإذا هذه المنازل – أستغفر الله – بل هذه الزرائب ، بل هذه الأوكار ، بل هذه المغاور – سمها ما شئت – إذا بها أماكن أستحيي من أن أرى فيها بعض الكلاب الضالة ! ففي هذه الحارات رأيت الأقذار هي والأطفال والكلاب واحداً لا فرق بينها ! ولا أكتمك أنى شعرت بشيء من الاشمئزاز» .

ولم نعثر – مع الأسف – على أى دليل آخر يؤكد لنا أن الأديب الرائد محمود تيمور ، قد فعل شيئاً فى قصصه – أو فى مزرعته – لحل هذه المأساة التى أصابته بكل هذا الألم ، وهذا الاشمئزاز ، لكن موقفه كأديب سيظل مسجلا للتاريخ ، وهذه مسألة أخرى ! . .

● **دماء وطين :.**

بعد تيمور . . لابد من الحديث عن يحيى حقى الذى يشغل نفسه بالفلاح ، من ناحية السلوك والطباع ، والتقاليد القاسية . . سواء كان هذا الفلاح عاملاً فى الحقل ، أو تعلم وصار موظفاً أو طبيباً أو غير ذلك من المهن ! . .

ويحيى حقى منذ بدأ يكتب القصص ، يسعى لتحقيق شيء من العدل لهذا الإنسان الفلاح . . وشيء من الرقى لفنونه الشعبية ، كما فى كتابيه :

«ياليل ياعين» – و«تعالى معى إلى الكونسير ! » . .

وإذا كانت أزمة أبطال رائعته «قنديل أم هاشم» تكمن فى الاختيار الصعب بين علاج العيون بجراحة الطب الحديث ، واليقين الدينى الراسخ فى قوة زيت قنديل أم هاشم . . فإن قلب الأزمة وسرها هو ذلك السلوك الريفى المسيطر على عقول كل شخوص القصة ! . .

ونجد انغماس يحيى حقى فى حياة الفلاحين يبلغ ذروته فى مجموعته : دماء وطين – التى نشرت فى «اقرأ» عن دار المعارف ، وتضم : البوسطجى . . و«أبو فودة . .» وغيرهما . . وإن بدا المؤلف ساخراً لاذعاً – «وربما متفكها على أغلاط الإملاء . . ومبتكرات الفلاحين ، من مصر المحروسة . . لكوم النحل قبلى» – ص ٣٤ إلا أنه يحبذ دائماً أن نكون مثل «هذا الفلاح الذى يغضب على كل شىء إذا سب أحد عشيرته أوأساء لشرفه» – ص ١٠٠ – لكننى لا أجد مبرراً لإصرار يحيى حقى ، على أن يصور الفلاحة – المجربة الحويطة – فى رأيه – وهى تخون زوجها لمجرد أنه «فلاح لا يملك سوى جلبابه الأزرق المرقع» ص ١١٦ .

إن الانحراف أمر وارد فى كل المجتمعات ، ولكن ، من طباع الفلاحة بالذات أن تكون أكثر حرصاً على عفتها . . وهذا ما يندر تصويره فى «دماء وطين» ولعله بذلك يريد أن يفزعنا أكثر ، ويحمسنا أكثر ، لحل مشاكل الفلاحين ! . .

ننتقل بعد ذلك إلى دراسة عدد من الروايات ، التى كان لها تأثير بالغ . . فى موضوعنا ! . .

جلاد الحاكم
وقانون توفيق الحكيم

لقد قطع الفلاح البطل شوطاً طويلا ومؤلماً عبر القصة المصرية– كما عرفنا– قبل أن يجد نفسه محط اهتمام العملاقين : طه حسين ، وتوفيق الحكيم ومن بعدهما الأدباء : عبد الرحمن الشرقاوى ويوسف إدريس وسعد وهبه وثروت أباظة ، وفاروق منيب ، وعبد الله الطوخى ، ومحمد صدقى ، وعبد الفتاح رزق وكوكبة من الأدباء البارزين فى جيل الشبان المعروفين الآن لجمهرة القراء العرب .

● **يوميات نائب فى الأرياف :**

فى عام ١٩٢٩ ، وما بعده بلغت مشكلة الفلاح المصرى ذروة من ذراها المأساوية المزعجة فى ظل وزارتى– محمد محمود ، واسماعيل صدقى حيث عادت السلطة للسوط ، فزيفت الانتخابات وضرب اقتصاد البلد ، وانعكس ذلك كله قهرا وظلماً على الفلاح المصرى . . الذى تململ هو وأبناؤه من المثقفين وخرجوا فى مظاهرات فى القرية والمدينة والحقل والجامعة ضد ظلم الحاكم والمستعمر ! . .

وعن هذه الفترة بالتحديد كتب توفيق الحكيم روايته الشهيرة «يوميات نائب فى الأرياف» التى نشرت عام ١٩٣٧ ، كما كتب طه حسين قصته «المعذبون فى الأرض» التى صودرت فى مصر ونشرت فى لبنان ، ثم سمح بطبعها فى مصر بعد ١٩٥٢ . . وكتب عبد الرحمن الشرقاوى روايته المعروفة «الأرض» التى نشرت عام ١٩٥٤ . .

أما توفيق الحكيم ، فقد لجأ إلى السخرية اللاذعة من مأساة الفلاح ومن الذين صنعوها ، والذين يتألمون لها والذين هم ضحيتها ، وذلك كله فى إطار السخرية المريرة من القانون الأجنبى الجائر الذى كان الحكيم مضطرًّا لتطبيقه على الفلاح المظلوم ، ومع ذلك فالقانون يطالب بضرورة سجنه طالما هو قد سرق كوز الذرة حتى لو كان قد فعل ذلك من جوعه وإن كان جوعه قد جاء من الظلم الواقع عليه !

إن الحكيم يطالب بتغيير القانون لكى يتمكن من عدم عقاب الفلاح المسكين الذى انحرف بسبب الجوع والجهل والمرض وبطش السلطات ، لكنه لا يصرح بعدائه للسلطة فهو «حويط» وأذكى من ذلك ، إذ يكتفى بتشخيص الحالة ويترك المطالب الواضحة لك أنت كقارئ له !

وفى هذه القصة – كما نذكر – نلتقى نحن ومجموعة من خدم القانون الذين كتب عليهم الشقاء بالعمل فى الأرياف ، أو الذين «نكبوا» بالعمل به كما يصفهم المؤلف ، وهم : مأمور المركز المشغول بخناقات زوجته مع زوجة منافسة لها ، ومنهم أيضاً – القاضى الذى لا يهمه سوى

موعد قطار العودة لمصر وقفص الدجاج والسمن والجبن وغيرها من خيرات الريف التي تشتهيها على الدوام زوجته ، ثم الطبيب وغيره ، ووكيل النائب العام الذى هو كاتبنا الحكيم الذى « نكب » هو ذاته بمطاردة الخارجين على القانون المخالفين لتعاليمه ! والعجيب أن الذين يخالفون القانون فى الرواية هم فقط من : الفلاحين ! . .

وقد استعمل توفيق الحكيم أوصافاً جارحة للفلاحين مثل : مكدسين كالذباب – ص ٢٧ . . أو يجلسون كالماشية – ص ٣٠ ! وقد يقول بعض المتحمسين للحكيم : إنه لا يقصد الاستهانة بالفلاحين ، ولكن أحداث القصة نفسها تؤكد العكس تماماً ، ولا تجد منفذاً أمامك لكى تظن غير ما ورد بها فعلاً من ألفاظ وصفات تدخل فى بند « التقليل » من شأن الفلاح وشأن مأساته ، والله أعلم ! . .

لكن المؤكد أن هذه القصة ، كانت مدرسة أدبية تخرج فيها الكثير من أدباء مصر :

فى قصص يوسف إدريس ، ومسرحيات سعد وهبة ، مثلا – لا بد أن تجد نفسك فى إطار اللوحات الفنية الساحرة التى تزخر بها « يوميات نائب فى الأرياف » وربما يرجع ذلك إلى القوة الطاغية لشخصيات الحكيم بهذه القصة ، وعلى كل ليست هذه قضيتنا هنا ، فنحن نبحث عن نظرة الحكيم لبطله الفلاح فى القصة ، وكيف تعامل هو والفلاح . وسنجد أنه يصر وهو يحقق فى قضية مخالفة أحد الفلاحين للقانون ،

وقيامه بغسل ثيابه فى النهر ، و . . يقول فى ص ٣١ :

النيابة ليست من شأنها أن تبحث أين يغسل هذا الرجل ملابسه ؟ ولكن ما يعنيها هو تطبيق القانون !

ولا يكف الحكيم عن إعلان تبرمه وضيقه من الفلاحين فيقول فى صفحة ١٥٦ : «يخيل إلىّ أن الفلاح إنما يخرج إلى سوق الخميس من كل أسبوع ليبيع كيلة ذرة ليشترى قليلا من السكر والشاى ويملأ زجاجة السيرج ، ويستكتب أحد الكتبة العموميين بلاغا أو عريضة ضد مأذون الناحية ، أو العمدة ، أو وكيل شيخ الخفر ، ولعل هذا أصبح بنداً ثابتاً من ميزانية كل خارج إلى السوق من هؤلاء الفلاحين . لست أدرى لذلك سبباً : أهو الظلم حقًّا أم داء الشكوى ؟ . .

إن أى تعليق على كلام الحكيم لن يخلو أبداً من الدهشة ، ومن فضلك اقرأه مرة أخرى وتوقف أمام «لست أدرى لذلك سببا » هل هذا معقول ؟ إن الأمر على كل حال ، لا يخلو من الطرافة ، لكن يكفينا أن الحكيم جعل هذه الرواية قطعة فنية راقية جذبت اهتمام العالم كله إلى صدقها الفنى ، فترجمت إلى عدد من اللغات الأجنبية ، بل إن «إيبا إيبان» وزير خارجية إسرائيل الأسبق هو الذى ترجمها بنفسه إلى العبرية ، وأعد عنها دراسة أكاديمية .

وبذلك يمكن القول : إن «يوميات نائب فى الأرياف» تعد بحق أول عمل أدبى يجعل الأجانب – أيضاً – يعرفون حقيقة ما كان يجرى

للفلاحين المصريين على أيدى المستعمر ، وأعوانه من ذوى السلطان ، ويكفى أن الحكيم بوعيه الفكرى سجل موقفاً رائداً فى صفحاتها بدعوته إلى ضرورة تعديل القانون الأجنبى الذى يطبق فى بلادنا مع عدم صلاحيته لإنصاف أهل البلد ، وربما كانت هذه هى أول دعوة من رجل قانون أصلا ، هو الحكيم، لإلغاء ما لا يصلح لنا من القوانين ، وأن تُستبدل بها قوانين ثورية تراعى ظروف بلادنا ، وتنصف الفلاحين حتى من ظلم بعض أفنديات القاهرة ! . .

وهذا وحده يكفى جدًّا من الحكيم فى إنصاف بطلنا الفلاح الذى كان فى أنتظاره قلم طه حسين وفكره كما سنرى !

المعذبون فى الأرض
وعدل طه حسين

وعند الحديث عن موقف طه حسين من الفلاح المصرى لابد أن نذكر بكل الإجلال – أنه كان أكثر أدباء مصر ثورة وعنفاً فى محاربة الظلم المثلث الأضلاع الذى سجن فيه فلاحنا ، وأعنى بذلك . . ثورة طه حسين على ثالوث : الجهل والفقر والمرض ! . .

ويتضح ذلك من صفحات قصة «المعذبون فى الأرض» . التى صدرت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، أو بمعنى أصح نشرت جريدة المصرى وغيرها منها فصولا ، ثم فكر فى طبعها فى كتاب فصدر قرار بمنعها من النشر فى مصر ، فاضطر إلى طبعها فى لبنان ، وظلت مصادرة إلى أن تمكنت دار المعارف من طبعها فى حوالى ١٩٥٤ بعد أن قامت ثورة يوليو ، وهذه المعلومة أذكرها ليضعها شباب هذا الجيل الجديد فى ذهنه وهو يقرأ لطه حسين أو يبحث فى قضايا الثقافة والمثقفين فى بلادنا ! . .

وسيجد قراء هذه القصة «المعذبون فى الأرض» كل مميزات أسلوب طه حسين ، وكل براعته فى علاج مأساة فلاح مصر . .

فنى هذا الكتاب نلاقى كلمة طه حسين – كلمة قالها فى لغة الفلاح الجافية ، يملؤها مع جفوتها الحب والإشفاق » فهو ساخط على الفلاح لاستكانته للبؤس . وهو ساخط أيضاً بل مندد بهذا الشقاء وهذا البؤس ، وهو أخيراً يطالب بأن يحل « العدل » محل الظلم ، لينال الفلاح حقه ، ويتخلص من تعْسه .

وطه حسين فى هذا كله – كما قلت – يصدر عن موقف اجتماعى واضح ، ينبع من فكر متفتح حر ، بل صلب وعنيد عنادا ترجع جذوره إلى طفولته وشبابه المبكر الذى عاشه فى حقول قريته « الكيلو » بمحافظة المنيا ، حيث عرف ورأى كل تفاصيل المأساة التى فرضت فرضا غاشما على فلاحى مصر ! . .

ومجمل القول ، أن صدق طه حسين فى معالجة مشكلة الفلاح سمة أساسية فى كل معاركه الفكرية والأدبية ، وسنجد ذلك واضحاً فى معالجته لمأساة الفلاحين فى قصصه وبالذات قصة « صالح » الفقير الجائع المعدم ، امتداداً لما قصه علينا فى « الأيام » وشجرة البؤس ، ودعاء الكروان وغيرها !

إنه فى هذه القصص يشن حملته الأدبية ضد ألوان الظلم والجهل والمرض ، ويدعو صراحة للعدل الاجتماعى ؛ ولهذا سنجد الفلاح عند طه حسين رجلا أميناً عفيفاً برغم جوعه : كان يرى الطيبات بين يديه فتتوق إليها نفسه ، وتتوق إليها نفوس بنيه وبناته ، فإذا أراد أن يمد إليها

يده ، أبت أن تمتد كأنما أصابها الشلل ، فكان يكظم غيظه ،ويصبر نفسه على مكروهها ، ويصبر أهله على البأساء والضراء ، وينتظر العدل الذى يبطئ عليه فيغلو فى الإبطاء ! . .

هذا هو حال الفلاح بطل قصص طه حسين وهذا هو الحل الجذرى الذى يراه طه حسين ، وتكاد تلمس أن (طه حسين) يضع شروطاً لتحقيق هذا العدل : بمعنى أنك تجده فى قصص الكتاب – كما فى أجزاء «الأيام» وفى آخر ما نشر له – بعد رحيله – وهو رواية لم تتم بعنوان «ما وراء النهر» التى نشرتها دار المعارف أيضا – أقول : إنك ستجد نقده الشديد اللهجة لكل المتحكمين فى أقدار الفلاح وفى حياته ، إنه يثبت لك بالدليل القاطع أنهم جميعا يسرقونه ، ويمزقون حياته ؛ حتى ذلك الشيخ الذى اشتهر فى القرية باسم «الفقيه» كان طه حسين يطالب بتعليمه أصول الدين وقواعد العدل ؛ ليكف هو الآخر عن نهش الفلاح !

انظر مثلا ما يقوله طه حسين عن هؤلاء «الفقهاء» المنبثين فى القرى : «ولم يكونوا أقل من العلماء الرسميين تأثيرا فى دهماء الناس وتسلطاً على عقولهم ؛ فهؤلاء الفقهاء كانوا على اتصال بأهل الطرق ، وكانوا يسمون أنفسهم «حملة كتاب الله» ومنهم من كان «حمّاراً» بنص كلمات طه حسين فى «الأيام» ، حمّاراً ينقل للناس بضائعهم وأمتعتهم ثم أصبح تاجراً ، ومنهم من كان «خياطاً» ثم صار مالكاً ومرابياً و . . إلخ

وكان «أذكى هؤلاء الفقهاء وأشدهم علما إذا سئل من أحد الفلاحين : ما معنى قول الله تعالى : «وخلقناكم أطواراً». كان يجيب هادئا مطمئناً : «خلقناكم كالثيران لا تفهمون شيئاً» ! — ص ٨٧ من الأيام . . .

فأى ظلم ذلك الذى سَجنوا فيه فلاحنا البطل المهزوم برغم أنفه ؟ . .

ومن هنا ، بل من كل سطور «المعذبون فى الأرض» و«دعاء الكروان» و«كل كتبه نستطيع أن ندرك معنى إلحاح (د. طه حسين) فى دعوته بأن يكون العلم للجميع كالماء والهواء ! فهو يعرف أن الإنقاذ فى تعليم الناس ، فإذا هم تعلموا فهموا حقوقهم وطالبوا بها ، كما عرفوا واجباتهم فأدوها كما يجب أن يكون الأداء !

ويحدثنا طه حسين أيضا عن الأعداء الآخرين للفلاحين ، وما أكثرهم ! إلى جانب عداوة رجال الحكم أصلا ، لنجد أنهم كثرة نهمة طامعة ، ومنهم «رجال السحر ، والدجالون ، وباعة الكتب الصفراء ، وباعة الأدوية الفاسدة ، وشربة الدود ، وغيرهم من الذين ينهبون ما يتبقى للفلاح ، هذا إذا كانت حكومات ذلك الزمن تبقى له على أى شيء من محصوله !» .

ولعلها المرة الأولى ، التى تطالع فيها إدانة شاملة لكل أعداء الفلاح ، ومن حُسن الحظ أن الذى قام بها كان هو (طه حسين) إذ يروى لنا — ضمن ما يرويه فى قصص كتابه ولوحاته : «المعذبون فى

الأرض » . . كيف كان أهل القرية – وغيرها من قرى الإقليم ينتقلون ولا يأبون على أنفسهم الهجرة من قرية إلى قرية ، ومن مدينة إلى مدينة بحثاً عن لقمة الخبز ! ومع ذلك « لا يجد أحدهم ما ينفقه فى رزق نفسه وفى رزق من يعول فيشقى أشد الشقاء وأعظمه بما يجد من الحرمان » .

فالفلاح عند طه حسين «كانت عينه تبصر إلى أبعد ما يبلغ البصر ، وكانت يده قصيرة إلى أدنى ما يكون القصر» . .

كذلك كان الفلاح يرى « الآفات المختلفة تصطلح على جسمه ونفسه وعلى أجسام عياله ونفوسهم ، ويهم أن يصلح مما تفسده تلك الآفات فيقصر به همه ويقعد به عزمه » . .

و « صالح » أحد هؤلاء الفلاحين ، بل إن (طه حسين) يؤكد لنا : أن « صالح » هذا يملأ المملكة المصرية من شرقيها إلى غربيها ، ومن شماليها إلى جنوبيها – يملأ مصر نعمة وخيراً وهو مع ذلك يشعر الناس بأن مصر هى بلد البؤس والشقاء ! » . .

وهكذا : يؤكد لنا طه حسين – بشمول رؤيته وعمق فكره – أن « العدل » هو الحل لمأساة صالح وغيره ، بل إنه عندما جعل من صالح رمزاً لكل فلاحى مصر كان يجسم مأساة مصر فى ذلك العهد ، وكان يجسد مطالب المصريين جميعاً فى التخلص من كل الذين أهملوا مأساة الفلاح ، وأساءوا لمصر ، فهؤلاء لا يحسون لواحد مثل صالح خطراً ،

أو يعرفون له وجوداً ، ولا يلتفتون إليه ! »

لذلك كانت مهمة طه حسين أن يجبر الجميع على الالتفات للفلاح ، والاهتمام به «فصالح» ليس مجرد فلاح معدم ، وإنما – ونكرر – هو رمز صادق جدًّا لمصر كلها ! ومن ثم فإصلاح شأنه وإنقاذه من براثن الظلم والظالمين إنقاذ ضمنى لمصر كلها .

ولا ينسى طه حسين أن ينبهنا إلى أن العلاج ليس فى الدعوة للإحسان للفلاح أو التصديق عليه بشيء ، بل ينص على ذلك بقوله : «لست أنفر من شيء كما أنفر من ترغيب الأغنياء فى العطف على الفقراء ، ومن تشجيع الأشقياء على احتمال الشقاء ! » ومعنى ذلك بوضوح شديد : التحريض على إنقاذ الفلاح من شقائه إنقاذا جذريا وعمليا بالعدل وبالعدل وحده .

وهكذا يكسب الفلاح نصيراً عملاقاً هو طه حسين الذى حرث الأرض جيداً ، ووصف العلاج الوحيد ، وبقى أن نرى ماذا فعل الأدباء الذين جاءوا بعد طه حسين؟ وكيف عاملوا الفلاح فى قصصهم ؟

عذاب البطل فى الأرض !

وإذا كان ملف البطل – الفلاح – قد استكمل ثلاثة عناصر رئيسية هى : ضرورة إصلاح شأنه كما قال النديم ، وحتمية تعديل القوانين التى تظلمه كما نادى الحكيم ، واتضحت الصورة بإصرار طه حسين على أن العدل هو الحل الوحيد لتنفيذ ذلك كله – فإنه يتبقى أمامنا العنصر أو البُعد الرابع فى القصة كلها ، وأعنى به : الوسيلة أو الأسلوب أو الكيفية ، التى يجب أن يتم بها الإصلاح ، وتعديل القانون ، ونشر العدل : هل ذلك هو التسول من حكومات ظالمة ، أو إجبار هذه الحكومات على تغيير موقفها لمصلحة الفلاح بوصفه رمزاً لمصر؟ . .

الإجابة تنتشر بوضوح شديد ضمن فصول رواية « الأرض » لعبد الرحمن الشرقاوى التى صدرت فى يناير ١٩٥٤ ، لتنتقل بشخصية الفلاح بطلا مأساوياً إلى مرحلة أخرى وهامة ، تدعو للمجابهة مع الإقطاعيين الظالمين ومن يساندهم من ملوك واستعماريين ! . .

ومنذ الصفحات الأولى للرواية يفسح الشرقاوى مسرح الأحداث لأكثر من فلاح ، فيقدم « محمد أبو سويلم وعبد الهادى ودياب ومحمد أفندى وغيرهم » كملاك صغار ، ويقدم أيضا « علوانى وعرباوى

وخضرة» رمزاً للضائعين بلا أى ممتلكات أو حقوق فى القرية ، كما يقدم الشيخ يوسف رمزا للثورى المتبقى من عام ١٩١٩ ، وصار تاجراً جشعاً يحلم فقط بمنصب العمدة ، وزميله الشيخ حسونة الذى طوى ثورية ١٩١٩ فى أعماقه ، واكتفى بدوره مدرساً ثم ناظراً لإحدى المدارس ، ثم إذا ما وصل الأمر إلى الاختيار بين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة ، أو القتال أو الاعتقال مثلا نجده يهرب من القرية التى جاء لمناصرتها راضياً من المأساة كلها بالإبقاء على أرضه التى يزرعها أهله الفقراء !

إن الصورة يتسع إطارها لعدة نماذج من الدجالين ، والإرهابيين من رجال السلطة فى سجن المركز ، ولعدد من الثوار الذين يتظاهرون ويطالبون بالاستقلال والجلاء والحرية برغم رصاص الإنجليز وسجون الملك وحكومته الإرهابية ، وهكذا نلاقى الفلاح فى هذه القصة ، وقد أصبح رافضاً للحلول الوسط ، بعد فشل المفاوضات والعرائض والشكاوى ، وبعد أن أصبح الأمر هو : أن الامتثال لقرار الحكومة بمنع دورة الرى عن الأرض يساوى الموت وجفاف الزرع والمزيد من الجوع والفقر والمرض ! وكذلك الامتثال لرغبات الباشا الصغير المدلل الذى ينتزع ملكية أراضى الفلاحين ليشق فيها طريقا مرصوفا إلى قصره الجديد — يساوى أيضاً فقد الأرض ، والأمن والحياة !

وهنا نتذكر عناد الفلاح الفصيح فى تلك القصة الفرعونية القديمة عندما قال للفرعون : «جئت لتحمى الناس فصرت رئيسا للصوص ،

وسلبت الفقير أنفاسه وهى كل أملاكه ! » .

إن هذا ما يحدث بالضبط : يثور الفلاح مثلما ثار أجداده ضد ظلم المماليك وضد تسلط نابليون، وضد اسماعيل صدقى، وضد الإنجليز، وتحدث المعركة الدموية التى يسقط فيها الفلاح «محمد أبو سويلم» مصرجاً بدمائه تحت سنابك حصان المأمور ، ولكن أظفاره تظل مغروسة فى أرضه وتكون الهزيمة الرهيبة التى تعلن أن النصر قادم حتماً ، وأن الفلاح سوف يجد – كما حدث فعلا – القانون العادل الذى يحميه من البطش والسرقة ! . .

وهكذا ، نجد أن رواية « الأرض » تحدثنا عن بطولة الفلاح ومأساته فى نفس العصر الذى اختاره الحكيم وطه حسين مسرحاً لأحداث قصصهم . . إنه عصر الغليان السياسى يوم كانت مصر تحكم بالحديد والنار على يدى إسماعيل صدقى بعد أن ألغى الدستور لحساب الإنجليز ! وأجمل ما يصور هذا الوضع السياسى السخيف هو تساؤل أحد الفلاحين :

هو صدقى باشا ده قد إيه ؟

يعنى هو اللى يغلب ولاّ الواد عبد الهادى لو نزلوا لبعض لعب عصا ! إن الظالم كان كائناً عجيباً ومخيفاً حقاً ، يكفى أنه يأكل خبزا كلّه من القمح وأنه لا يعرف طعم الذرة الذى يأكلونه فى القرية ! يكفى أيضا أنه يشرب ماء مثلجاً ولا يعرف شكل الزير والقلة ! . .

ثم يتساءل أحد الأطفال : «ما هذا الدستور الذى هتفوا بحياته مع الكبار وضربوا من أجله فى سجن المركز؟» .

إن الصور المحزنة كثيرة فى فصول هذه الرواية — الأرض — ولكن الأمل فيها أكثر ، والصمود والعمل على أخذ الحق «بالدراع» بعد فشل الأساليب الهادئة كلها ، بل بعد أن خدعهم الباشا واستغل إمضاءاتهم وأختامهم لتحقيق مصلحته هو ، وانتزع ملكية أراضيهم كلها ، بعد هذه الخدعة لم يكن من مفر أو من حل آخر غير حمل الفئوس وقتال دامٍ مع رجال السلطة ! وهذا حقهم ، حقٌ فلاحنا الذى يعرف أن الأرض هى التى تهب له الحياة ، وهى كرامته ، وهى أيضاً عرضه وشرفه ، والوسيلة الفريدة لحياة امرأته وعياله ؛ ومن هنا تتبلور صورة الفلاح الذىأدرك سر عذابه ، وأسباب شقائه ، وعرف الجلادين بالاسم ، ووجه إليهم ضربته بالفأس، وإنْ يكن قد هزم مثل هزيمة عرابى ، هزيمة ملحمية دامية لا تُنسى .

ويتلخص الموقف الحاسم كله فى مثل هذا النموذج الذى اخترته من حوار الرواية فيما يأتى :

«اسمع يا جدع إنت وهوه ، أنا عارف لماضة الفلاحين ، وشغلهم ولؤمهم . . والحكومة عارفة و . . .»

حكومة ؟ سلامات يا حكومة !

«تعطشوا لنا الأرض ، وتكسروا السواقى وفاضلنا خمسة أيام لسّه

وتقولى حكومة ! والنبى لتجرى دماها قبل مياها . . وسَّعْ يا جدع منك له . . هى الحكومة ماعندهاش شغلانة غير بلدنا ! » ص ٦٧ – ٦٨ ! . .

وهكذا نجد أن قصة الأرض قد وصلت بشخصية الفلاح إلى استكمال البعد الرابع فى شخصيته ، ويكفى أنها صورت الفلاح وهو يجرب العمل بذراعه وعقله وفأسه ، وبكل أساليب الحوار المتاحة ؛ لكى يقنع الحكومة بحقه ، ولكى يقنعها بظلمها وبطشها ، ولكى يدلها على السبيل الوحيد لنشر العدل والبدء فى إصلاح كل ما فسد فى حياة مصر !

وبهذا تكون شخصية الفلاح ، كبطل للقصة المصرية قد استكملت نموها الجسمانى والفكرى أيضاً ، وصارت نموذجاً قويًّا وصالحاً للتعامل به فى كل الفنون .

لكن : هل استفاد الأدباء الذين جاءوا بعد طه حسين والحكيم والشرقاوى من هذه الشخصية ؟ وهل كان تعاملهم معها فى قصصهم ، مفيداً للمجتمع أو أنهم اختاروا زوايا أخرى ، وكشفوا عن نواقص أهملها من سبقوهم من الأدباء ؟

كل هذه تساؤلات نجد الجواب عنها فى الفصول التالية .

الحرام ومأساة « الأنفار » ! . .

فى حوالى عام ١٩٥٨ نشر يوسف إدريس روايته « الحرام » لتكون أول – وأهم – رواية تفرد صفحاتها لمعالجة مأساة وبطولة الفلاح عندما يعمل الألوف منه أجراء ، ويتنقلون فى تراحيل من بلد لبلد ، وليس معهم سوى كسرات من الخبز الجاف وقليل من البصل والجبن القريش والمش والكثير من العذاب والجوع والحرمان والفقر . . وكل الغربة والضياع حيث يهبطون بأمر مقاول الأنفار إلى حقول بعيدة ، ويعملون فى ظل القهر والكرباج ، ويظلون دائماً على هامش القرى حيث يعملون نهاراً فى الحقول ، وينامون ليلا على مشارف القرية منبوذين من أهلها وكأنهم يحملون وباء مخيفاً ، وهم بالفعل فى هذه القصة كانوا يحملون وباء رهيباً يمس شرف الإنسان ، ويخص عرض امرأة منهم مسكينة اسمها « عزيزة » التى ذهبت لتعمل ضعف عملها ؛ فهى تعمل عن نفسها وعن زوجها « عبد الله » الأجير الذى أصابته « البلاجرا » فجلس عاجزاً كالمشلول وحوله أطفاله الجياع على حين تعمل عزيزة التى اعتدى على عرضها صاحب الأرض عندما كانت تبحث عن « جذر بطاطا » يشتهيه زوجها عبد الله . .

وتطول الترحيلة ويثمر العدوان جنيناً يتحرك فى أحشائها ويهدد حياتها وحياة زوجها . فالزوج مريض منذ أعوام ، فمن أين لها بالجنين ؟ . . ومن أبوه ؟ وهل هو من القرية أو من بين الترحيلة ؟ .

إن الأمر يصبح فضيحة مخيفة عندما تحاول عزيزة إجهاض نفسها ، فتمرض بالحمى ، ويعرف الجميع : الترحيلة وأهل القرية . . أنها كانت حاملاً وينتشر الشك فى جميع النفوس وجميع الخيام والحقول والبيوت ؛ حتى إن ناظر الزراعة يشك فى زوجته وابنته وأصدقائه الذين يزورون داره ! وببطء رهيب تتعرى حياتهم جميعا ليكتشفوا الزيف والضياع والكبت ، والذل والإرهاب الذى يعيشونه ، ويعيشون فى أسره دون وعى !

وتتكشف أيضاً مأساة ألوف الفلاحين سواء منهم الأجزاء من أهل القرية أو صغار ملاكها ، أو التراحيل الغرباء الذين يفدون إليها ، ويصبح الأمر كله فى حاجة إلى حل جذرى يعيد الإحساس بالحياة ذاتها إلى أبدانهم المريضة ، وعقولهم المشوهة ، ونفوسهم الخربة ؛ ويعرفون فى النهاية من الجانى الأوحد : الحكم الفاسد ، الإقطاعيون الجشعون ، المستغلون من مقاولى الأنفار؟ ويضاف إلى ذلك رصيد الفقر والجهل والمرض ، وعندئذ يصبح لا مفر من إصدار قانون يحمى عمال التراحيل ، وكأنما شعر يوسف إدريس بأن عمله تأخر نشره أو تأخر تأليفه ؛ إذ سبقه بالفعل صدور قانون جديد لرعاية عمال التراحيل وتنظيم أجورهم وحمايتهم

من جشع المقاولين . فيشيد بذلك القانون فى الفصل الأخير – الدخيل – على بناء الرواية من الناحية الفنية البحتة .

لكن تظل رواية الحرام إضافة أدبية لها قيمتها إذ يكفى أنها عالجت مأساة الفلاح الأجير من زاوية حادة ومؤلمة ، وهى – كما قلنا – الرواية الأولى والأخيرة عن هذا الفلاح الضائع ، وإن كان قد سبقها صدور مجموعة قصص قصيرة جيدة جدًّا باسم « الأنفار » للأديب محمد صدقى الذى كان أولَ وأبرز من عالج مشكلة عمال التراحيل فى قصته تلك ، وذلك فى عام ١٩٥٤ على ما أذكر – ثم جاءت « الحرام » لتستفيد من محاولات الحكيم فى يوميات نائب فى الأرياف ، بل ربما أفادت من أقاصيص النديم ، ثم الحكيم وطه حسين والشرقاوى ، ومحمد صدقى ، وليس هذا عيباً كما قد يظن بعضهم ، وإنما هى سنة التطور الفنى ، فلابد للأديب من أن يستفيد من كل الأدباء الذين سبقوه ، ومن أحداث التاريخ ، ومجريات واقعه هو وعصره هو ، لكى يبلور فنه وفكره بعد ذلك فى مثل هذه الرواية – الحرام – التى ربما أخذت من شخصية الفلاحة الضائعة « خضرة » فى أرض الشرقاوى ؛ لتصنع شخصية « عزيزة » التى بلورت مأساة خضرة . . وجعلت الضمير يسأل : إلىٰ متى ؟ وكيف استمر هذا الوضع الحزين كل تلك السنين التى مرت وانتهت والحمد لله ؟

إن « الحرام » – كما نعرف الآن – قد فجرت جانبا ظل مهملا فى

شخصية ومأساة الفلاح ، وبذلك خطت بها خطوة إيجابية بعد أن ظننا أن المسألة يكفيها ما قاله الأدباء الذين سبق الحديث عن قصصهم ! . .

ومعنى ذلك أنه مازالت للمسائل بقية ، وأعني بذلك : ماذا جرى لبطلنا الفلاح عندما جاءت الثورة بالإصلاح والعدل ، لتنقذه ثم صادرت حريته بفعل مراكز القوى الإرهابية . . أو نقلته من أرضه وداره إلى أرض جديدة ، بسبب مشروع جديد وغريب على الريف . ترى حقاً ماذا حدث ؟ .

شيء من الخوف . .

وجفت الأمطار

بعد يوسف إدريس جاء جيل كثير العدد من الأدباء بدءوا حياتهم بالكتابة عن شخصية الفلاح ومشكلته ، وربما لمع أحدهم بسبب ذلك ، مثلما حدث لثروت أباظة عندما كشف عن أعماق ريف الشرقية فى روايته الأولى « هارب من الأيام » التى تذكرنا بمغامرات أدهم الشرقاوى وجسارته حيث صار « الطبال » ثائراً منتقماً من أغنياء القرية بطريقة اللصوص والعصابات ، وذلك من خلال قصة حب يسرى فى شرايين الرواية ببطء حيناً وعنف حيناً آخر ؛ لتُبلور مع بقية الأحداث رأياً أراد المؤلف أن يقوله عن عدم جدوى « حكم العصابات » و « عدم شرعية التسلط والإرهاب » وخاصة إذا قام به حاكم فرد يسميه الناس فى هذا الزمن بالدكتاتور ! . .

غير أن موقف ثروت أباظة من شخصية الفلاح ومشكلته يصل إلى قمته الفنية فى روايته « شيء من الخوف » التى صورت تسلط « عتريس » على أهل قريته ورفضه لشرعية الحياة والزواج التى نظمتها شريعة السماء والقوانين الوضعية ، فيفرض نفوذه على الجميع ، وبالذات أهل الفتاة

الجميلة «فؤادة» . . لكن أية فتاة هذه؟ . .

إن بطلة «شيء من الخوف» ليست مجرد فلاحة عادية– مهما بلغ حسنها وجمالها ، ولهذا ، لا يتردد ثروث أباظة فى أن يعقد لها لواء الزعامة على أهلها . . وأهل قريتها من الفلاحين ، برغم علمنا وعلمه طبعاً ، بأن المرأة الريفية على وجه الخصوص ، مجرد تابع للرجل ، تحيا فى ظله وتسلم له قيادها . . لكن الأمر هنا يختلف ، لأن ثروت أباظة كتب روايته هذه عن قضية الحرية ، وجعل البطلة رمزاً للوطن . كما جعل بطله «عتريس» رمزاً للحاكم . . أى حاكم طاغية ، يخنق حرية وطنه وتعميه أطماعه الشخصية ، فلا يرى غير ذاته المتضخمة ، ويعمى ، حتى عن الجوانب الطيبة التى كانت بداخله ، أو التى يمكن أن تكون فى سلوكه ! . .

قصة شيء من الخوف»– إذن– ابنة شرعية لتلك الظروف التى عشناها جميعاً فى فترة الستينيات ، ولست فى حاجة إلى التذكير بكل ما حدث لنا ، فقد عرفنا كيف ساد الرأى الواحد ، وكيف ظهرت القلة الانتهازية التى حكمت بالحديد والنار ، وفتحت المعتقلات لسجن وتعذيب كل المطالبين بالحرية والديمقراطية ، سواء أكانوا من اليسار– أم من اليمين–أم من الوسط ، أم محامين وقضاة وصحفيين و . . و . . إلخ

هذه هى– باختصار شديد– الخلفية السياسية لقصة «شيء من الخوف» . . التى استعان كاتبها بالرمز . . تحاشياً «للرقيب و«المصادرة» التى كانت لعنة تطارد كل صاحب رأى حر ، ولحسن الحظ– طبعاً–

أفلتت «شىء من الخوف» من رقابة البطش ، ونشرت — كما نعرف — مسلسلة فى مجلة «صباح الخير» ، ثم ، فى سلسلة «إقرأ» بدار المعارف ، فى أبريل ١٩٦٧ ، لتكون شهادة صدق على عصرها ، وتحذيراً مبكراً من الانهيار — الذى حدث فى يونيه ١٩٦٧ . . المشئوم . . وتكون — أيضاً — نبوءة مبكرة ، بالتصحيح الذى كان لابد منه لمسيرة الثورة . . ولإنقاذ مصر من التخلف ومن الهزيمة أيضاً ! . .

ولهذا فمن حق ثروت أباظة ، أن نقول . . إنه بقصته «شىء من الخوف» ، كان امتداداً شرعياً ، يليق بحضارتنا ، وكان يستكمل ما بدأه كل أدباء مصر الرواد ، منذ قصة الفلاح الفصيح ، وعبد الله نديم ، ود . هيكل ، وطه حسين ، وتيمور . . والحكيم ، ويحيى حقى ، والشرقاوى ، وغيرهم من الذين كتبوا مدافعين عن حرية مصر ، وفلاح مصر كرمز تاريخى لكل أبناء الوطن . . على اختلاف مهنهم .

نجد ذلك واضحاً ، فى كل أحداث القصة ، وفصولها ، بل فى القاموس اللغوى العنيف أحياناً ، والهامس بفداحة المأساة كل الأحيان حين نتابع مثلاً إصرار «عتريس» على الزواج من «فؤادة» برغم إرادتها وإرادة أهلها ! . .

إن فؤادة — إذن — كانت هى الفلاحة — الرمز — . . وكانت وسيلة ثروت أباظة ، ليدافع بها عن قضية الحرية . . ولهذا ، نجدها تكتسب

مقومات هذا الرمز ، وتنمو فى نسيج القصة ، وفى خيال القارئ ، حتى تصير تجسيداً حياً ، وشجاعاً ، لمصر . .

ودليلنا على ذلك ، ما يقوله عنه المؤلف فى صفحتى ٣٠ – ٣١ من القصة :

– « هى – فؤادة – تحب الناس أجمعين . . كما تحب الله . . لها فى لقائهم ابتسامة لا يشعر بها الناس ، ولكنهم يجدون أنفسهم اميل إليها دون أن يحللوا أسباب هذا الميل .

كانت فؤادة قديرة على أن ترسل إلى نفوسهم إشعاعات من الحب الذى تحمله لهم . . إنها متصلة الجذور بالأعماق » . . إلخ وهذه صفات لا تقال إلا عن المحبوب . . الوطن . .

ولهذا كله . . كان الرجال أكثر الشاكين إلى فؤادة من إجرام عتريس ، وكان قلب فؤادة ينصدع لشكوى الرجال وكانوا يحسُّون بمشاعرها .

أما الذين كان يؤذيهم عتريس ، فكانوا يشكون لها ، وكانوا يرون وجهها يفيض بالحزن والألم والأسى ، وكان يكفيهم أن يروا هذا على وجهها ، حتى يحسوا أنهم ليسوا وحدهم فى الحياة ! . . »

إن هذا لا يقال عن فؤادة – الفلاحة – إلا إذا كانت قد ارتفعت من ذهن المؤلف وأذهان القراء ، إلى مستوى الوطن حقاً وفعلاً . . ولقد كان الوطن كله فى محنة تهدد ثورته ، وتغتال حريته ، لذلك كان الوطن –

أقصد– كانت الفلاحة «فؤادة» فى حاجة إلى السماء وإلى الناس . فأما السماء فقد عبَّر عن عظمتها وعدلها الشيخ إبراهيم . . فى ص ٣١ «الله معك . . أنت تحيين الله يافؤادة . . والله يحبك . . لأنك معه .» .

وأما الناس . . فقد ثاروا بشهامة الفلاحين ، وعظمتهم ، فى نهاية القصة ، فالشيخ إبراهيم– وانظر بلاغة الرمز– مضى إلى دكان المسيحى عبد الملاك فاشترى إصبعاً من الطباشير وعلى حائط مسجد القرية ، كتب فى حروف ظاهرة قوية : «زواج عتريس من فؤادة باطل . . باطل . . باطل» ص ١٢٢ . . وهى الكلمات التى خرج بعض الناس من مشاهدى القصة– كفيلم سينمائى– وكتبوها على جدران شوارع القاهرة ، وكأنهم يعلنون بوضوح ، أن زوج الارهاب بمصر . . باطل . . وأن زواج الدكتاتورية بمصر . . باطل باطل ! .

. . ولأن فؤادة لم تعلن موافقتها على الزواج من عتريس ، ولأنها وطن كل الفلاحين . . وكرامتهم . . ولأن عتريس وصل به الأمر إلى تحدى شريعة السماء ، فكان لابد من تأديبه ، أو قتله إذا لزم الأمر ، لإصراره على الاغتصاب والقهر ، وهذا ما تنتهى به «شىء من الخوف» حيث يقول الفلاحون . . بعد أن توحدوا . . واتحدوا . . ضد عتريس وجبروته . . قالوا فى غضب ، وبلا خوف :

– «فؤادة تذهب إلى بيت أبيها . .»

فيثور عتريس عليهم . . فى عقر داره التى جعلها معتقلاً لفؤادة . .

ويهددهم بقوله :

– سأقتلكم جميعاً ! . .

ولكن هيهات ، فالأهالى – وقد عاد وعيهم ، ورُدَّت إليهم روح الحرية المقدسة ، يحررون فؤاده من الأسر . . ويخرجونها من معتقل عتريس ، برغم أنفه وبطشه . .

وهم يقررون فى حزم الأقوياء بالحق :

– « إننا نحن الذين نقتل ! . .

لقد انتصر الفلاحون ، لأن فؤادة – الوطن – قالت – برغم ما نالها من تعذيب رهيب – :

– ولكنى لا أموت ! . .

هذا هو آخر – وأقوى – الأدلة على أن فؤادة لم تكن مجرد فلاحة عادية ، وإنما كانت رمزاً رائعاً للوطن . . ونحن نعرف أن كل المخلوقات تموت ، إلا الأوطان ، وإلا الحرية ، فهى خالدة أبداً ، بإرادة الله ، والشعوب الحرة .

وهذا – أيضاً . . هو خير ختام ، لهذا الكتاب . .

ففى قصة « شىء من الخوف ، وفى غيرها من القصص التى ناقشناها ، عرفنا كيف فاز الفلاح . . كبطل للقصة المصرية ، وكأب شرعى لجميع الأبناء فى شتى المهن الأخرى . . فاز بتأييد أدباء مصر له

ولقيم الحق والعدل والحرية ، من خلاله كإنسان ، ورمز .

ألم أقل لكم إن فلاح مصر . كان وسيظل هو البناء العظيم ، الذى يهب لمصر الحياة والرقى على الدوام ؟ ! . .

فهرس

الكتاب القادم

عجائب الحشرات

د . محمد طلعت الإبراشى

رقم الإيداع	١٩٧٧/٥٤٤٧
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ١٢٥ - ٦

١٦٠/٧٧/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



هذا الكتاب

دراسة فنية عن شخصية البطل – الفلاح – فى القصة المصرية منذ الأدب الفرعونى القديم حتى عصرنا الحالى تكشف عن الأسباب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وراء اختيار الأدباء للفلاح بطلاً ورمزاً لمصر عبر العصور .. وتؤكد دور الفلاح العظيم الذى ملأ مصر بالمعرفة والحضارة الخالدة ودافع عن حريتها وبقائها ..

x.
30
62
24

٤٥٠٥٩٩/١

